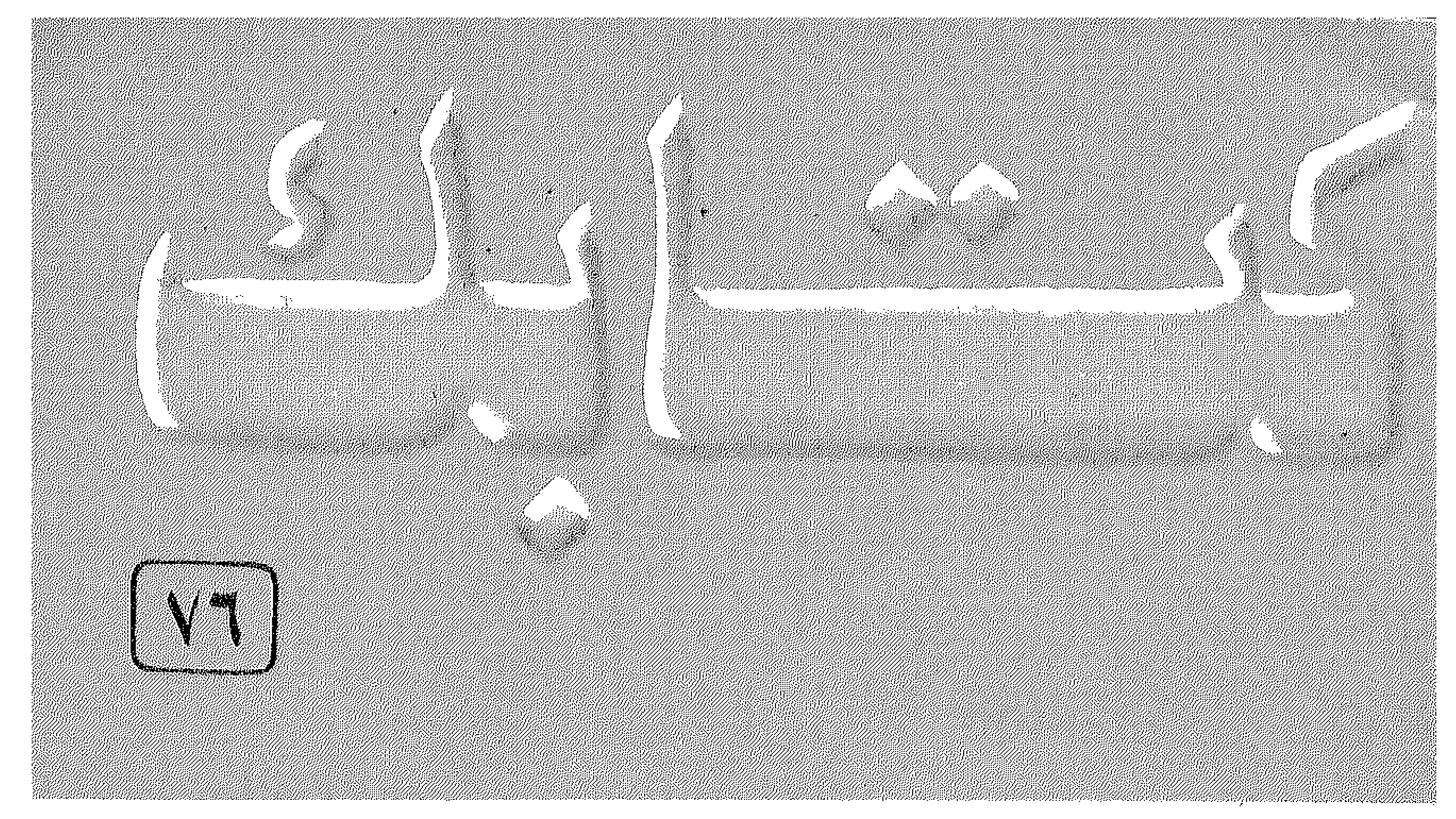
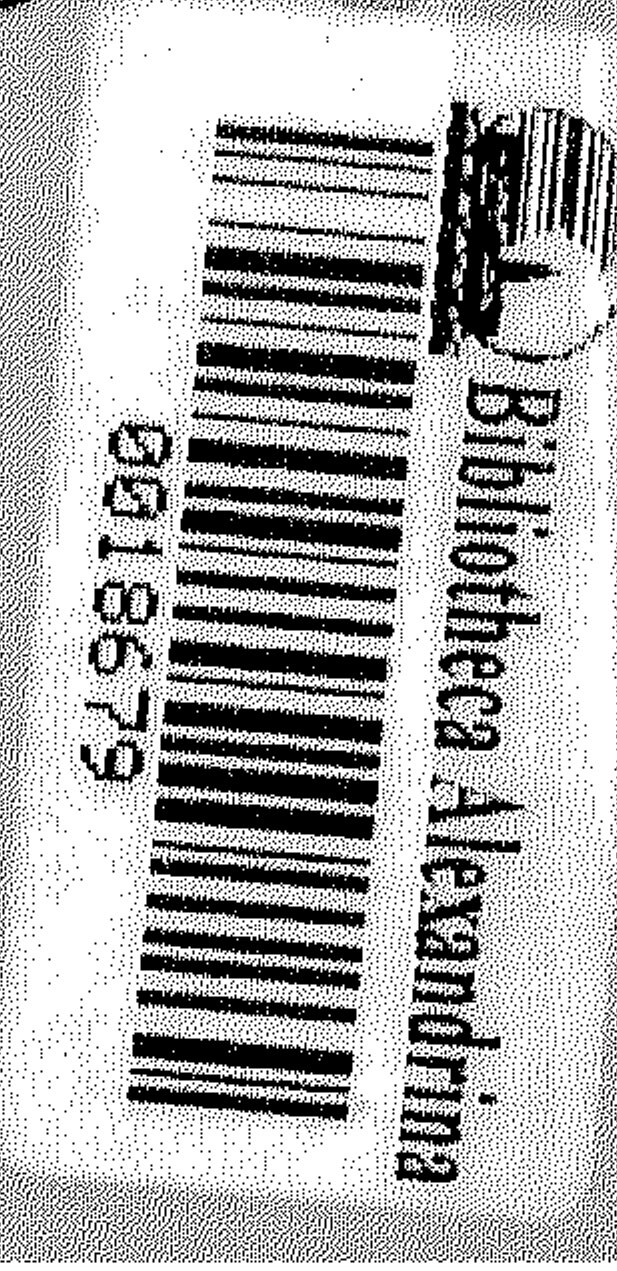


لواء / محمد جمال الدين محفوظ

العسكرية الإسلامية ونظريات العصر

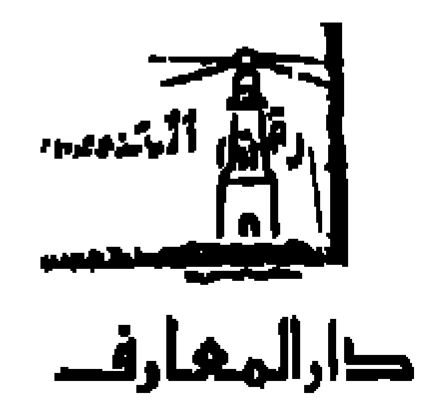


دار المعارف

كتابك ٧٦

رئيس التحرير أنيس منصور

العسكرية الإسلامية ونظريات العصر



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

النظرية الإسلامية

في بداية حياتي العسكرية في مستهل الأربعينيات قرأت بعض كتب السيرة النبوية الشريفة ، ولم أكن في قراءتي تلك إلا طالباً لثقافة عامة في ناحية من نواحي التاريخ . . وفيما كنت أقرأ عن غزوة بدر الكبرى أول معركة حاسمة بين المسلمين وقريش ، قرأت قول رسول الله ﷺ لرجاله بعد أن عدل صفوفهم استعداداً للقاء العدو : «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل . واستبقوا نبلكم ولا تسلوا سيوفكم حتى يغشوكم . »

ومعنى « فانضحوهم » ادفعوهم عنكم بالنبل أى السهام . ومعنى « استبقوا نبلكم » لا ترموها على العدو وهو بعيد عنكم ، بل انتظروا حتى يقترب .

هنا تملكتنى الدهشة والعجب ، لأن ما قاله الرسول الكريم هو بعينه مبدأ من المبادئ العسكرية التي درستها ، والتي يدرسها رجال العسكرية جميعاً في ناحية أصول الدفاع ضد هجوم العدو ، فإن النبي ﷺ كان يعني بتلك التعليمات أموراً هامة هي :

١ — استخدام أسلحة الدفاع طبقاً لخصائص كل منها مع استغلال هذه الخصائص إلى أقصى حد :

٤ .

● فالسهام وهى السلاح «بعيد المدى» تطلق أولاً .

● والسيوف وهى سلاح القتال المتلاحم لا تستخدم إلا عند الالتحام فعلاً ، وبعد أن تكون السهام قد استغلت بأكبر حشد وإلى أقصى حد .

٢ - تأخير قذف السهام من القسى حتى يقترب الأعداء . وهو معنى قوله «واستبقوا نبلكم» ، وذلك بعينه هو مبدأ «كبت النيران» فى اصطلاحات العلم العسكرى الحديث ، ومؤداه ألا يبدأ المدافعون فى الرماية من بنادقهم حتى يقترب العدو المهاجم إلى البعد الذى يمكن معه أن تصيب كل رصاصة رجلا منه فتقتله . . ولو أن رصاص البنادق التى تستخدمها جيوش العصر يمكن أن يصل إلى مسافة ألف ياردة على الأقل ، فإن أصول الرمى فى المعركة الدفاعية تقضى بألا يطلق رصاص البنادق إلا إذا اقترب العدو إلى مسافة مائتى ياردة أو أقل من ذلك ، حتى تكون الإصابات قاتلة لدقة تصويبها ، وحتى لا تتاح للعدو فرصة الإفلات أو المناورة بحيلة من الحيل .

ولا شك فى أن نيران المدافعين الكثيفة والمصوبة بدقة يكون لها أثر مروع فى نفوس المهاجمين ، فتتحطم روحهم المعنوية من شدة الإصابات والخسائر ، وتضعف إرادتهم القتالية ؛ ومن ثم كان «كبت النيران» أفضل من الرمى على مسافات بعيدة يطيش معها رصاص

المدافعين ، فضلاً عن أنه ينبه العدو إلى مواقع المدافعين فيحتاط لأمره ، ويجرى من الأعمال ما قد يفسد عليهم خطتهم .

وهكذا أراد الرسول القائد ﷺ بتلك التعليمات السديدة ألا يطيش سهم من سهام المسلمين ، كما أراد أن يقوم المسلمون بنبالهم قومة رجل واحد ليلقوا الرعب والهلع فى نفوس المهاجمين .

لكننى تساءلت – وأنا بعد ضابط صغير – إن الرسول ﷺ لم يدرس فن الحرب فى أية مدرسة عسكرية ، فكيف اتفقت تعليماته مع المبادئ التى وضعها العسكريون الذين تعلموا فنون الحرب واتخذوها صناعة وعاشوا لها ؟

على أنى خرجت من هذه المقارنة بعزم أكيد على أن أعود إلى حيث بدأت فى قراءة السيرة النبوية الشريفة ، وجعلت غايتى البحث الدقيق والموازنة والتحليل ، لا مجرد طلب الثقافة العامة فى ناحية من نواحى التاريخ .

وبارتقائى فى دراسة العلم العسكرى وفن الحرب فى كلية القيادة والأركان ، ثم فى أكاديمية ناصر العسكرية العليا . وبانفتاحى على المدارس العسكرية الشرقية والغربية سواء بالدراسة فى معاهدها أو مطالعة مؤلفات قادتها ، زادت رؤيتى للتاريخ العسكرى الإسلامى عمقاً واتساعاً ، ونمت قدرتى على التحليل والمقارنة ، فماذا رأيت فى « بدر » نفسها غير ما رأيت من قبل ؟ على سبيل المثال : لقد رأيت عملاً

من أعمال الاستراتيجية العسكرية الكبرى ، ينطوى على العبقرية السياسية والعسكرية معاً ، وهو ما أوضح ملامحه الرئيسية بإيجاز فيما يلى :

الأفق الاستراتيجى العام قبل المعركة :

لقد كان الأفق الاستراتيجى العام مشحوناً بالعداء والتربص للإسلام والمسلمين ، سواء من ناحية قريش التى تريد القضاء على الدين فى موطنه الجديد بالمدينة بعد أن فشلت فى القضاء عليه بمكة ، أو من ناحية القبائل المجاورة للمدينة ، أو المشركين والمنافقين فى المدينة ، أو اليهود . . كل هؤلاء كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويحاولون انتهاز فرصة سانحة للإيقاع بهم وحرمانهم من الحرية فى نشر دعوتهم .

وحين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة فارين بأنفسهم وعقيدتهم ، تركوا أموالهم هناك ، فلا عجب أن يتجه تفكيرهم إلى استخلاص أموالهم من قريش . . فقرر الرسول القائد ﷺ أن يفرض الحصار الاقتصادى على قريش بتهديد طريق تجارتها الحيوية . وكانت الطرق التى تسلكها القوافل شمالاً إلى أرض الشام هى طريق مكة – ساحل البحر الأحمر – تبوك – دمشق . فأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه تهديد هذه الطريق ، وضرب تجارة قريش فى أخطر اتجاهاتها .

ويتضح ذلك من تحليل الغزوات والسرايا (أعمال القتال) التى

دارت خلال الفترة من رمضان للسنة الأولى للهجرة إلى رجب للسنه الثانية وهى سرية حمزة بن عبد المطلب إلى العيص فى رمضان سنة ١ هـ – سرية عبيدة بن الحارث إلى وادى رابغ من شوال سنة ١ هـ – سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخزار من ذى القعدة سنة ١ هـ – غزوة ودان فى صفر سنة ٢ هـ – غزوة بواط فى ربيع الأول سنة ٢ هـ – غزوة ذى العشيرة فى جمادى الآخرة سنة ٢ هـ – غزوة بدر الأولى فى جمادى الآخرة سنة ٢ هـ – سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة فى رجب سنة ٢ هـ .

وقد استهدفت أغلب هذه العمليات تهديد طريق تجارة قريش فى مواقع مختلفة ، كما أنها حققت أهدافاً أخرى لها وزنها فى الصراع بين المسلمين والمشركين ، فمن الناحية العسكرية أظهر المسلمون أنهم أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم ، وتعرفوا على طبيعة الأرض والطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة وما فيها من موارد وقوى بشرية . . ومن الناحية السياسية تحالف المسلمون مع بعض القبائل المجاورة ، وقد ظهرت آثار هذا التحالف فيما بعد .

وكان حجم التحدى الذى واجه المسلمين فى بدر هائلاً :

● فتلك أول معركة حاسمة بين المسلمين والمشركين ، وسوف تكون لنتائجها آثار بعيدة المدى على الدعوة ومستقبلها وعلى هيبة المسلمين ، وهذا ما عبر عنه الرسول ﷺ حين هتف بربه : « اللهم إن تهلك هذه

العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

● وحساب المقارنة بين القوتين يوضح تفوق المشتركين على المسلمين فى العدد والعُدّة تفوقاً ساحقاً (٣٠٥ رجال من المسلمين ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يواجهون ٩٥٠ رجلاً من المشركين معهم مائتا فرس وعدد كبير من الإبل) .

النظرية الإسلامية فى التغلب على عدو متفوق :

ويكشف لنا النصر الذى أحرزه المسلمون على أعدائهم فى بدر عندما يمكن أن نسميه بالنظرية الإسلامية فى التغلب على عدو متفوق . . وهى حقًّا نظرية محكمة يشهد التاريخ الحربى الإسلامى بصحتها وإحكامها ، وتقترب منها نظريات العصر الذى نعيش فيه ، بل كل عصر ، وهى تحتوى على الأركان التالية :

أولاً – قوة العقيدة فى ميزان المقاتل :

إن العقيدة الراسخة هى الركن الأول من أركان النظرية الإسلامية ، الذى يرجح كفة جيش المسلمين على جيش أعدائهم .

ولقد كانت للمسلمين عقيدة راسخة تشكل لديهم ينبوع الإرادة القتالية التى لا تقهر ، تلك هى عقيدة الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الدين وإعلاء كلمة الله ، أما على الجانب الآخر فكان الأمر على العكس

فلم تكن لدى المشركين إلا أهداف عصبية جاهلية تنطوى على كل الطيش والغرور .

هذه العقيدة تملأ قلب المسلم ثباتاً واستبسالاً فى لقاء العدو والذى ليس له من تلك الدوافع واحد يستند إليه ويقاتل من أجله ، ولا شك أن هذا مما ترجح به موازين المجاهدين فى مواجهة الأعداء ، فإن الدوافع النفسية الصادقة تحارب إلى جانب أصحابها كما يحارب الجندى إلى جانب صاحبه ، ولهذا كان الإسلام حريصاً على أن يزود المسلمين بتلك الدوافع التى تملأ نفوسهم حمية واستبسالاً ، ولهذا كان حساب المسلم فى الحرب مقدراً بما فى نفسه من مبادئ يحارب عنها ، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب ، وهذا ما نجده فى قول الله تعالى : (يأيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) . ذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادئ الكريمة والدوافع ولهذا حرموا الفقه الذى كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادئ التى يقاتلون عليها ، والمثل التى يدافعون عنها ، ومن حرم هذا الفقه فى مجال الحرب فقد تعرى من كل سلاح يدافع به وكانت عاقبته الهزيمة والبوار .

حسبنا أن نذكر أن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قتل أباه فى معركة بدر ، وأن عبد الرحمن بن أبى بكر كان من المشركين فقال لأبيه

أبي بكر الصديق بعد إسلامه :

« لقد صدفت لى يوم بدر فلم أقتلك » فقال أبو بكر : « والله لو صدفت لى لقتلتك » فما الذى يدعو إلى أن يقتل الابن أباه والأب ابنه غير العقيدة الراسخة ؟

هذا وإن فى سجلات بدر وغيرها من معارك الإسلام صوراً لا تحصى لقوة العقيدة ودورها فى إحراز النصر على العدو المتفوق .

ثانياً – التخطيط على أساس أحدث المعلومات :

فإن المعلومات الحديثة والدقيقة من أهم المطالب الحيوية للتخطيط الجيد عامة والتخطيط الحربى خاصة ، فحين اقترب المسلمون من بدر بعث الرسول ﷺ مفرزتى استطلاع للحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها وكانت الأولى بقيادة على بن أبى طالب وقد وصلت إلى ماء بدر وعادت ومعها غلامان لقريش فاستنطقهما الرسول فعلم أن قريشاً وراء الكثيب « بالعدوة القصوى » كما استنبط أن قوة قريش بين التسعمائة والألف حين عرف من الغلامين أنهم ينحرون من الإبل يوما تسعاً ويوماً عشراً » . وأما المفرزة الثانية فوصلت ماء بدر فسمعت حديثاً بين جاريتين استنبطت منه موعد وصول العير إلى بدر .

وقد حرص الرسول مع ذلك على القيام بالاستطلاع « بنفسه » فانطلق أمام الجيش ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله

عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم . قال الشيخ : «لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟» قال النبى ﷺ : «إذا أخبرتنا أخبرناك» . . وعلم الرسول من شيخ العرب أن عير قريش قريبة منه فقال له : «نحن من ماء» ثم انصرف وصاحبه عنه والشيخ يقول : «ما من ماء ؟ أمن ماء العراق» وهكذا لم يخبره الرسول عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين ، أى أن الرسول يقرر مبدأ هامًّا فى الاستطلاع هو أن تحرص مفارز الاستطلاع على عدم كشف نوايا قواتها أو أوضاعها .

ثالثاً – الشورى للإفادة من كل رأى وكل خبرة :

يقرر الإسلام مبدأ هاماً فى اتخاذ القرارات والتخطيط هو الأخذ بالمشورة الصالحة وتجنيد كل ما لدى القيادة من قوى الآراء والقلوب فقد استشار الرسول ﷺ أصحابه فى مبدأ دخول المعركة أصلاً ونزل على مشورة الحباب بن المنذر ، وانتقل بالجيش إلى حيث أشار بحيث يتحكم المسلمون فى مياه بدر . وفضلاً عن أن الشورى ترفع من كفاية الخطط وإحكامها فإن لها أثراً عظيماً فى رفع كفاية التنفيذ أيضاً . ذلك لأن اشتراك المرءوسين بالرأى خلال مرحلة التخطيط يجعلهم أكثر تفهماً للأهداف التى يراد تحقيقها ويضمن اهتمامهم وحماستهم وإيجابيتهم عند التنفيذ لشعورهم بأنهم قد ساهموا فى التخطيط للعمل الذى يؤدونه .

رابعاً – إحراز المبادأة فى اختيار أرض المعركة :

اتخذ الرسول ﷺ – نزولاً على مشورة الحباب – معسكر المسلمين للمعركة فى موضع يتحكم به المسلمون فى الماء ويحرمون عدوهم منه وبذلك جعلوا عدوهم يواجه موقفاً من أشد المواقف قسوة فى حرب الصحراء .

والقائد العسكرى المحنك هو الذى يستطيع أن يستدرج عدوه إلى أرض المعركة يكون قد اختارها لما فيها من مميزات وخصائص طبيعية وطبوغرافية تساعده على قهر عدوه ، لأنه بذلك يكون قد أحرز « نقطة تفوق » فى حسابات المقارنة بين قوى الطرفين .

خامساً – إحكام سيطرة القائد على قواته :

تعتبر السيطرة المحكمة للقائد على قوته المحدودة التى تواجه عدوًّا متفوقاً ضرورة حيوية ، لأن السيطرة تكفل له حسن توجيه الطاقات البشرية والمادية التى تحت قيادته بما يحقق استغلالها واستثمارها إلى أقصى حد بطريقة اقتصادية ومنظمة فلا يذهب من الجهد أو الطاقة أو الوقت شىء بلا طائل .

وقد كانت بدر نموذجاً رائعاً للسيطرة المحكمة للرسول ﷺ على جيشه :

● تنظيم الجيش فى كتيبتين لكل منهما قائد .

● تشكيل الكتائب فى صفوف منتظمة .

● القتال بالصفوف خلافاً لما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكر والفر ، وأهم ما يتميز به أسلوب القتال بالصفوف هو أن يضمن سيطرة القائد على رجاله ، كما يؤمن له احتياطيًّا يعالج به المواقف الطارئة مما يحقق له استمرار السيطرة ، أما أسلوب الكر والفر فلا يحقق أو يضمن سيطرة القائد المحكمة .

● إصدار أمر القتال «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل . . . إلخ» الذى يضمن سيطرة القائد على تصرفات رجاله فى كل مرحلة من مراحل المعركة وألا «يحملوا على عدوهم حتى يؤذنوا» .

١ – المرحلة الأولى : عند اقتراب العدو يرميه المسلمون بالسهام . .

٢ – المرحلة الثانية : عندما يلتحم العدو بالمسلمين يتحولون إلى القتال بالسيف .

٣ – المرحلة الثالثة : مطاردة العدو بعد هزيمته فقد أمرهم قائلاً «شدوا» .

سادساً – تطبيق مبدأ الاقتصاد فى القوى :

لقد كانت القوة محدودة أصلاً فالعدد قليل والسلاح بالتالى قليل والذخائر أيضاً قليلة (النبال) لذلك كان لابد من تطبيق مبدأ الاقتصاد

فى القوى حتى يتحقق الهدف بأعلى درجة من الكفاية وبأقل التكاليف أو الخسائر فى الوقت نفسه .

وقد أوضحنا ذلك عند تحليل أمر القتال الذى أصدره الرسول ونفذه المسلمون بكل دقة وضبط من حيث استغلال طاقات كل سلاح إلى أقصى حد «كبت النيران» بتأخير قذف السهام حتى يقترب العدو تماماً بحيث يكون كل سهم برجل .

سابعاً — تدمير الروح المعنوية للعدو :

وذلك من أهم الوسائل التى تتغلب بها القوة المحدودة على العدو المتفوق وقد تجلى ذلك فى بدر كما يلى :

● استهلال المعركة بقتل مبارزى قريش جميعاً كان له دون شك أثره الكبير على روحها المعنوية ، ولعل ذلك يكشف السر فى أن الرسول القائد ﷺ قد حرص على أن يعين بنفسه من يخرج من المسلمين للمبارزة ، فاختار من يتصفون بالشجاعة الفائقة لكى يكون نجاحهم على رجالات قريش مضموناً ، فيهز بذلك معنويات المشركين ويرفع فى الوقت نفسه من معنويات المسلمين قبل أن يبدأ القتال الفعلى .

● مباغتة العدو باستخدام المسلمين لأسلوب القتال بالصفوف وهو أمر لم يكن فى حسبانه والمعروف أن للمباغتة فى الحرب آثارها المعنوية والمادية التى تزعزع إرادة العدو القتالية .

● سيطرة المسلمين على الماء وحرمان المشركين منه .

● تكبيد العدو «أكبر» قدر من الخسائر فى «أقصر» وقت وذلك نتيجة لتأخير قذف السهام مع سيطرة القائد على «وقت» قذفها . . كل ذلك يؤدى إلى انطلاق السهام بأكبر حشد وفى وقت واحد تقريباً مما يؤدى إلى تساقط عدد كبير من رجال العدو فى أقصر وقت وذلك أمر بالغ الأثر على معنوياته . .

يقول شارنهورست فى كتاب «التكتيك» : «إن عشرة رجال يسقطون فى ميدان المعركة يجبرون فوجاً (حوالى ١٠٠٠ رجل) على التراجع بصورة مؤكدة ويكبدونه أكثر من خمسين جريحاً يسقطون تدريجياً فى أماكن مختلفة» .

● استخدام القناصة لاصطياد زعماء قريش وساداتها من بين صفوف العدو واستئصالهم مما يحدث صدمة وارتباكاً يضعفان من كفاءة العدو القتالية ومن روحه المعنوية . . وفى بدر عين بعض المسلمين للقيام بمهمة القناصة ، ومن ذلك تعيين بلال لاصطياد أمية بن خلف وهو من كبار قريش . وتعيين ابن الصفراء لقتل أبى جهل .

ثامناً – رفع معنويات الجيش إلى أقصى حد :

وإلى جانب تدمير الروح المعنوية للعدو فإن النظرية الإسلامية ترشد إلى ضرورة رفع معنويات الجيش إلى أقصى حد قبل المعركة وفى أثنائها ،

فهذا العمل الذى يؤدى إلى «خفض» معنويات العدو وإلى « رفع » معنويات جيش الإسلام فى الوقت نفسه ينطوى على «تضييق للفجوة» التى بين الطرفين فى الكفاءة القتالية إذ يرفع كفاءة جيش الإسلام فى حين يخفض كفاءة جيش العدو «المتفوق» فقد خطب الرسول القائد الناس قبل المعركة . وحضهم على القتال فقال :

«أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه . . إلى أن قال : وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى من الغم» .

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» .

وقد ألهب ذلك حماسة المسلمين للقتال وزاد فى قوتهم المعنوية حتى إن عمير بن الحمام حين سمع حديث النبى – وكانت فى يده بعض التمرات يأكلها قال : أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟ . . وقذف التمرات من يده وأخذ سيفه ومازال يقاتل حتى استشهد رضى الله عنه . . ورمى قطبة بن عامر حجراً بين الجيشين وقال : لا أفر إلا أن فرّ هذا الحجر وذلك دليل على عزمه الأكيد على الثبات حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . . والأمثلة غير ذلك كثيرة . .

العسكرية الإسلامية

جانب رائد من الحضارة الإسلامية

لقد تناولت غزوة بدر كمدخل لبعض ملامح العسكرية الإسلامية التى لا يتسع المقام لعرض أركانها وخصائصها تفصيلاً ، وإنما نعرض بعض الأمثلة فقط .

والواقع أن التاريخ العسكرى الإسلامى حافل بآيات العبقرية الحربية فى القيادة وإدارة الحرب ، وأن الباحث المنصف يستطيع أن يقرر بشرف العلم وأمانته أنه قد أصبح للعرب بعد الإسلام مدرسة عسكرية كاملة لأول مرة فى تاريخهم ، وأن هذه المدرسة تضم النظريات الحربية والمبادئ الأساسية التى تقوم عليها المدارس العسكرية شرقاً وغرباً .

وشهادة التاريخ خير برهان ! .

فالحقائق التاريخية التالية تنطق بالآثار العملية للعسكرية الإسلامية :

١ – تأمين الدعوة الإسلامية ، وتأسيس الدولة الإسلامية ، وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية ، وقد بلغت أعمال القتال التى دارت فى عصر النبوة أكثر من ستين عملية قاد

منها الرسول ﷺ بنفسه ثمانيَ وعشرين غزوة ، ولقد واجه المسلمون فى هذه العمليات أكثر من عدو ، فواجهوا قريشاً والقبائل العربية الأخرى ، وواجهوا اليهود ، وواجهوا الروم ، ووقعت هذه العمليات خلال سبع سنوات تقريباً ، وقفزت قوة جيش الإسلام خلالها من (٣٠٥ رجال وفرسين فى بدر) إلى ٣٠,٠٠٠ رجل منهم ١٠,٠٠٠ فارس ، أى أن القوة تضاعفت حوالى مائة مرة .

٢ – امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً .

٣ – تمكين الأمة الإسلامية «الناشئة» من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظميين فى وقت واحد فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت هما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما ، وهذا مثل فريد فى التاريخ الحربى لم تبلغه أقوى الأمم وأعرقها وأعلمها بفن الحرب ، فأصبح العرب – بعد أن كانوا من قبل لا يطمعون أن يحموا أرضهم من الفرس والروم – لا يطمع أحد فى حماية أرضه من قوتهم القاهرة التى ملأت الأرض سماحة وعدلاً .

٤ – إتقان العرب – وهم أبناء البادية – ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وقد كان أعظم قوة بحرية فى زمانه ، يقول ابن خلدون : «إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى

تونس ، والرومان والصقالبة والفرنجة جميعاً تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التي ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته ! ! »

٥ – فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها العبقرية لخير البشرية في ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية ، فأصبح العرب – بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة – قادة للحضارة العالمية ، فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر جابر بن حيان في الكيمياء ، وابن الهيثم في الطبيعيات ، وأبو بكر الرازى في الطب ، وابن سينا في الطب كذلك والفلسفة ، والغزالى في الجانب الروحي ، وابن رشد في الفلسفة العقلية ، وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ والخوارزمى في الرياضيات وعشرات غيرهم . .

لكن لماذا لم ندرس «العسكرية الإسلامية» في معاهدنا ؟

لقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون الأمة الإسلامية أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، ولم يرد لها أن تخضع ، ولا أن ترضى بالذلة ، ولا تستكين إلى هوان ، فأوجب عليها الجهاد في سبيله ، وجعله الوظيفة الشريفة التي اختارها لأدائها كما يفهم من قوله تعالى : (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) (الحج ٧٨) ، وأمرها بإعداد القوة التي تلقى الرهبة في قلوب أعدائها : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط

الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (الأنفال ٦٠)

وقد حمل أجدادنا أمانة هذه التكاليف ، فعاشوا عصورهم أعزاء أقوياء أغنياء . . ثم أتى على المسلمين زمان تخلوا فيه عن الجهاد ، وأقبلوا على الدنيا وزينتها ، غافلين عن الخطر المحدق بهم ، ضاع وجودهم وكيانهم ، فتمكن العدو منهم ، وتسلط عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم ، وقامت ضدهم حرب تعددت صورها ، وتنوعت أشكالها ، إلا أنها فى جوهرها وأهدافها البعيدة ، «حرب حضارية»[1] تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلامية ومنع قيامها من جديد ، وفرض التبعية على العرب والمسلمين فى كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية أيضاً .

طمس معالم العسكرية الإسلامية :

وهكذا كان من بين أهداف تلك الحرب الحضارية «طمس معالم العسكرية الإسلامية» ومنع قيامها من جديد ، وفرض التبعية على العرب والمسلمين فى مجال الفكر العسكرى وفن الحرب . . ودليلنا على ذلك هو ما يلى :

---

(١) ويبدو ذلك فى صورة علنية سافرة فى قول بن جوريون عقب اغتصاب فلسطين العربية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ «إن أشد ما أخشاه لو أن قائداً عربياً ظهر فى يوم من الأيام ليقود نهضة حضارية شاملة» . . وفى قوله عقب حرب يونيو ١٩٦٧ «إننا لم ننتصر بعد ، طالما لم نقض بعد على حضارة العرب والإسلام» .

١ - إهمال الكتابة عن العسكرية الإسلامية كما ينبغى :

إن الباحث المطلع يلاحظ أنه منذ عصر النهضة حتى اليوم . وضعت آلاف الكتب حول الإمبراطورية الرومانية ، فى حين لا يتعدى ما كتب فى الغرب عن الفتوحات الإسلامية عدد أصابع اليد . . ويفسر لنا ذلك شاهد من الغرب هو الجنرال جون باجوث جلوب فى كتابه الفتوحات العربية الكبرى فيقول : «إن أوربا ظلت قروناً طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة . ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشراً ، ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ، فلقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل الذين أرخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن فى كمبردج وفاء لدين عليه . ولم يكن دخله من بيع كتبه كافياً لتمكينه من إعالة أسرته . . » .

وحتى أولئك الباحثين الأجانب الذين تناولوا الأعمال العسكرية الإسلامية [١] ، نرى منهم من يدعى أن الإسلام كان متخلفاً فى المجال

---

(١) انظر التفاصيل فى المصادر التالية على سبيل المثال :

● صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب

The Ensyclopedia of Military History (By Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).

● وصفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب

The Arabs, A Short History (By Philip K. HITTI).

=

العسكرى وأنه لم يضف جديداً إلى فن الحرب . ومن أراد منهم أن يبدو موضوعيًا فى دراسته نراه يركز كثيراً على الدوافع المعنوية النابعة من الإيمان وقوة العقيدة ، ولا يتناول الجوانب الفنية للمعارك من زاوية العلم العسكرى وفن الحرب . التى تزخر بها معارك الإسلام حقيقة .

ولسنا هنا بصدد الرد على كتابات العسكريين الأجانب عن العسكرية الإسلامية فذلك أمر يتطلب مؤلفاً خاصاً . ولكننا نوجه السؤال المنطقى التالى :

هل يقبل العقل أن تكون الشجاعة وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح فى العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معها شىء من الكفاية الحربية فى القيادة وأساليب القتال ؟ . . . وهل يقبل العقل أن يكون من العرب رواد فى كل نواحى العلوم الطبيعية الاجتماعية ولا يكون منهم رواد فى فن الحرب ؟

٢ – التهوين من قيمة العسكرية الإسلامية :

وبعض المؤرخين يحاول أن يهوّن من عظمة المسلمين وانتصاراتهم فيعلل سرعة الفتح الإسلامى باندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة ، ويضيف إلى

= ● وصفحة ١٢٠ إلى ١٢٣ من كتاب
War Through The Ages (By Lynn Montross).

● وصفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية ج ٢

ذلك ضعف الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . يقول الأستاذ عباس العقاد[١] :

«وما يزال الأكثرون من المؤرخين المحدثين يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم . ويحسبون هذه الغلبة شيئاً قد حصل وكان ينبغي ألا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ، ومصادفة لا تقبل التكرار . . وبعضهم يلتمس العلة فيقول : إنما هي وهن الدولتين ومصابها بالخور والانحلال ، أو يلتمس العلة فيقول : إنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة . . وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه :

● فالمصادفة ، لا محل لها في حوادث الوجود ، ولا تطرد في قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقيا والصين .

● وانحلال دولة من الدول ، قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين .

● والعقيدة ، قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقوّاد . وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم

---

(١) «عبقرية خالد» المقدمة (البادية والحرب) .

لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت ثم ولَّيتم مدبرين) (التوبة ٢٥) . . فمها يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية . وهذه الحقيقة هى أن المسلمين أيضاً كانوا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم . وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام ، لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوربيون ، بل معظم المؤرخين عامة ، ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين . »

٣ – دعوى قيام الإسلام بالسيف :

وفى اعتقادى أن أعداء الإسلام أرادوا – إحكاماً لتنفيذ مخططهم – أن يمنعوا رجال العسكرية المسلمين من تناول «العسكرية الإسلامية» بالدراسة . فروجوا دعوى أن الإسلام قام بالسيف . وهى دعوى مغرضة من بين أهدافها فرض نوع من الحساسية حول تناول الجوانب العسكرية

فى الإسلام ، بحيث يؤثر الكتّاب المسلمون المتخصصون تجنب دراستها من وجهة نظر العلم العسكرى وفن الحرب .

نتائج محاولات طمس معالم العسكرية الإسلامية :

وهكذا أُريد بالعسكرية الإسلامية أن تنطمس معالمها ، وكان من آثار ذلك أن عاشت دول عربية وإسلامية كثيرة تعتمد زمناً طويلاً على الدول الأجنبية فى مجال العلم العسكرى وفى الحرب سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية فأصبح رجال العسكرية فيها يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة . كما عاشت تلك الدول تعتمد على الدول الأجنبية أيضاً فى تزويد جيوشها بالسلاح والعتاد ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين قدرة على الصناعة الحربية أو بحوثها العلمية !

أول مدرسة عسكرية فى تاريخ المسلمين :

إن الإسلام حضارة كاملة ، ودستور شامل لأمور الحياة ديناً ودنيا . . وقد عالج الإسلام أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، ووضع خير المناهج والمبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها وقوانينها وآدابها ، وبذلك نشأت أول مدرسة عسكرية فى تاريخ المسلمين .

الرسول القائد والمعلم :

وكان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول وإذا كان علماء النفس وخبراء القيادة العسكرية قد استخلصوا الصفات التى يجب أن يتحلى بها القائد الكفء من دراسة شخصيات أبرز القادة فى التاريخ فذكروا منها قوة الشخصية والشجاعة واليقظة والحسم وقوة التحمل والتواضع والمبادأة والنزاهة والروح المرحة والذكاء والعدل والحكمة واللباقة ؛ فإن كل هذه الصفات بل صفات أخرى غيرها قد اجتمعت لدى الرسول القائد ﷺ ، فهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسنة) وكما خاطبه بقوله : (وإنّك لعلى خلق عظيم) . . وقد وضعه الله تحت حراسته ورعايته حتى حدث هو عن نفسه فقال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» .

فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد ﷺ فى الأمور الحربية ما يثير الإعجاب والتقدير من عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة أعمال القتال ، ولا محل إذن للتساؤل أين تعلم الرسول فن الحرب . . .

تدريب جيش الإسلام الأول :

وفى المدرسة العسكرية الإسلامية تعلم أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول وطبقوا تعاليمها ونظرياتها عمليًّا فى

ميادين القتال دفاعاً عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى القيادة والشجاعة والعبقرية الحربية ، وأثبتت نظريات تلك المدرسة عمليًا صحتها وكمالها .

وتاريخ معارك الإسلام فى عصر النبوة وحده – على سبيل المثال – يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية على القيام بجميع أشكال العمليات العسكرية مثل الدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة ومسير الاقتراب والإغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال والهجوم على القرى والمواقع الحصينة وأعمال الحصار . . إلخ . .

وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة دليل على كفاية تدريبهم عليها كما يقول كلاوزفتز : « يمكن للقوات العسكرية المدربة جيداً أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية » .

وقد كان من أهم موضوعات تدريب المسلمين ، تقوية الأبدان ، والرماية واستخدام الأسلحة ، والفروسية .

١ – تقوية الأبدان :

حث الإسلام على تعلم السباحة وركوب الخيل (مسرجة ومعراة) والسباق فى الجرى ، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الإبل ، والمصارعة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربية البدنية والرياضية

التى تبنى الجسم القوى السليم ، ويمدح الإسلام المؤمن القوى فيقول الرسول ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ، ويقول أيضاً : « إن لبدنك عليك حقاً . . » وكان النبى القائد ﷺ يتمتع بلياقة بدنية قوية ، فكان يصرع الرجل القوى ويركب الفرس عارية فيروضها على السير ، وكان يداعب من يحب بالمسابقة فى العدو .

٢ – الرماية واستخدام الأسلحة :

وحث الإسلام على التدريب على الرماية بالقوس والنضال بالسهام والطعن بالرمح والحربة ، والضرب بالسيف وهى أسلحة القتال المعروفة فى ذلك الوقت . وقد عنى الرسول القائد ﷺ عناية فائقة بتدريب المسلمين على الرماية واستخدام الأسلحة فقال عليه السلام :

– « ألا إن القوة الرمى » وكررها ثلاثاً .

– « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

– « كل ما يلهو به المرء المسلم باطل ، إلا رمية بقوسه ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله » .

– وخرج ﷺ مع نفر من بنى أسلم ينتضلون بالسوق (أى يتسابقون فى الرمى) فقال : ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا

مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين ، فقال : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعاً .

– ويروى أن بعض الأحباش كانوا يلعبون بحرابهم عند النبى عليه السلام فى المسجد ، فدخل عمر رضى الله عنه فأنكر عليهم لعبهم بالحراب فى المسجد فقال النبى : « دعهم يا عمر » . . وهكذا سمح الرسول باتخاذ المسجد ميداناً للتدريب ، فالمسجد موضوع لأمن جماعة المسلمين ، فأى عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله فهو جائز فيه ، مباح بين جدرانه .

– وقد بلغ من تقدير المسلمين للتدريب أن بعضهم كان يتدرب حتى فى يوم العيد ومن أعظم ما يدل على اهتمام الإسلام بالتدريب أن الرسول ﷺ مر بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمى ، فنزع نعليه وقال : « روض من رياض الجنة » . ! يقصد أن العمل الذى يعمل فى هذا الموضع (وهو التدريب على الرمى) يوجب روضة من رياض الجنة .

– وكان عليه الصلاة والسلام يشجع المسلمين على اقتناء الرمح والقوس بالإشادة بهما فى قوله لما رأى القوس : « بهذا وبرماح القنا تفتحون البلاد » وقوله : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » .

وقال أنس : ما ذكرت القوس عند النبى عليه السلام إلا قال : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » .

٣ - الفروسية والقتال على الخيل :

وحث النبي ﷺ المسلمين على التدريب على ركوب الخيل وعلى فنون الحرب بها فقال :

- «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة»

- «عاتبوا الخيل فإنها تُعتب» (أى أدبوها وروضوها للحرب والركوب فإنها تتأدب وتقبل العتاب)

- كما رغب عليه الصلاة والسلام فى اقتناء الخيل والعناية بها ، فجعل للفارس - عند توزيع الغنائم - سهمين وجعل للراجل سهماً واحدا ، وذلك لكى يستعين الفارس بالسهم الزائد على إعاشة فرسه وإعدادها للحرب .

وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ أسهمهما كما فعل الزبير بن العوام فى غزوة حنين وفى حروب الشام المختلفة .

كما أدى ذلك إلى أن قفزت قوة الفرسان فى تركيب جيش الإسلام فى عصر النبوة من فرسين فى غزوة بدر ، إلى عشرة آلاف فى غزوة تبوك .

استراتيجية الردع الإسلامية

مفهوم الردع فى العلم العسكرى :

المقصود بالردع هو منع دولة معادية من اتخاذ قرار باستخدام أسلحتها أو منعها من العمل أو الرد فى موقف معين ، وذلك باتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات التى تشكل تهديداً كافياً يحقق الردع . . وبمعنى آخر ، الردع هو إظهار القوة التى ترهب الخصم وتخيفه من عاقبة عدوانه ، وبذلك تقنعه بعدم العدوان أو استخدام القوة .

وهدف « الردع » يختلف عن هدف « الحرب » فبينما يهدف الردع إلى « منع العدو من اتخاذ قرار باستخدام القوة » ، فإن أسلوب الحرب يستهدف إكراه الخصم بالقوة على اتخاذ قرار بقبول الشروط التى يراد إملاؤها عليه .

الردع مفتاح الاستراتيجية المعاصرة :

وقد أصبح الردع مفتاح الاستراتيجية فى القرن العشرين وخاصة بعد أن تحقق ما يسمى بالتوازن الذرى بين الكتلتين المتنافستين الشرقية والغربية وذلك بعد الاقتناع لدى الشرق والغرب على السواء بعدم

جدوى الحرب وبأن قيامها بينهما هو عملية انتحار رهيبة لأن كلاً منهما يملك القدرة على الردع والانتقام إذا تلقى الضربة المدمرة أولاً .

وفى هذا يقول مارشال الجو البريطانى سيرجون سليزر : «إن أى حرب عالمية فى هذه الأيام وهذا العصر قد تكون انتحاراً عاماً ونهاية للحضارة التى نعرفها» .

كذلك يقول مارشال الجوتيدر : «إن التسابق فى استخدام السلاح الذرى لن يكون صراعاً لكنه سيكون انتحاراً مزدوجاً» .

وهكذا تحقق «القوة» أهدافها فى منع قيام الحرب بقوة «الردع» كما يقول الاستراتيجى الكبير الجنرال أندريه بوفر : «إن رجل القرن العشرين الذى تلاحقه مآسى الحربين العالميتين ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ربما وجد أخيراً الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسى ، وهى استراتيجية الردع» . . وكما يقول الفيلد مارشال مونتجمرى فى شرحه لمعنى كلمة الردع : «هى القدرة التى تكفى لردع أى خصم يفكر فى دعم مركزه عن طريق توجيه ضربة قاضية مفاجئة ، وهى القوة التى يمكن أن يكون وجودها سبباً لتجنب كارثة الحرب . . إننى أعتقد أن كلاً من الدولتين لن تخاطر بعواقب استخدام هذه الأسلحة النووية لأن الدمار الذى سيترتب على (الضربة الانتقامية) لأى منهما سيكون مروعاً كما أن كلا من الجانبين لن يكون على يقين تام من النصر ولقد كانت تجربة أزمة

الصواريخ فى كوبا خير دليل على ذلك ولن تسعى أية دولة من الدول إلى تخطى حدود الحرب الباردة إذا كانت لا تريد الانتحار»

وقد مهد التوازن الذرى وما لحق به من قوة الردع إلى محاولة منع التصادم ثم إلى ظهور سياسة الوفاق بين الكتلتين فى أوائل السبعينيات من القرن العشرين .

نظرية الردع الإسلامية :

والواقع أن استراتيجية الردع المعاصرة التى لم تتبلور فى أذهان رجال العسكرية إلا فى العصر الحديث وبعد حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها ، هى نظرية أساسية للعسكرية الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، وهذا ما نوضحه فيما يلى :

يقول الله تعالى : (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) [الأنفال ٦٠]

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : «نُصرت بالرعب مسيرة شهر» [صحيح البخارى] .

ومن ذلك نستخلص أن الإسلام .

١ – يأمر بإعداد القوة ورباط الخيل .

٢ – ويجعل الهدف من إعداد القوة ورباط الخيل «إرهاب»

الأعداء أى أن الإسلام قد قيد الأمر بإعداد القوة والمرابطة بقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) وذلك يفهم منه أن القصد هو إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة العدوان على بلاد الأمة .

ويفهم أيضاً من حديث الرسول ﷺ : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدى إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى .

وهكذا يتبين أن استراتيجية الردع المعاصرة تقترب من استراتيجية الردع الإسلامية التى هى «موقف مبدئى» للعسكرية الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً . غير أن الدراسة المقارنة تكشف ما تتميز به الاستراتيجية الإسلامية من نبل فى المقاصد والأهداف .

خصائص ومزايا استراتيجية الردع الإسلامية :

١ – تنطوى على النوايا السلمية وحقن الدماء .

وذلك على أساس أنها تمنع نشوب الحرب ، لأن القوة الإسلامية إذا أدخلت الرهبة فى قلب خصمها وأخافته من عاقبة عدوانه ، فسوف يمتنع عن العدوان تحسباً للمخاطر التى يعرض نفسه لها .

ويؤكد الإسلام هذا المعنى فى قول الله تعالى لرسوله ﷺ : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» بعد التوجيه بإعداد القوة والمرابطة فى سورة الأنفال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به

عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) [الأنفال ٦٠ – ٦١] .

وهذا أبلغ دليل على ما تتميز به الاستراتيجية الإسلامية من نبل فى المقاصد والأهداف على غيرها من الاستراتيجيات ، ويكفى أن نتأمل نظرية فيلسوف الحرب كلاوزفتز عن معنى الاستراتيجية العسكرية والتى تتضح من أقواله التالية :

« قد يتصور المحبون للخير بسهولة أنه توجد طريقة بارعة لنزع السلاح الذى فى يد العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وأن هذا هو الاتجاه السليم لفن الحرب . . تلك غلطة يجب أن نمحوها » ! !

« يجب أن نصم آذاننا عن القادة الذين يتصورون دون إراقة الدماء » .

من الضرورى أن تكون فكرة « القتال » أساساً لتفكيرنا .

٢ – التفوق الساحق لا يغرى الأمة الإسلامية باستخدام القوة :

وتتميز استراتيجية الردع الإسلامية على غيرها بأنه إذا تملكت الأمة الإسلامية للقوة المتفوقة على أعدائها حتى أصبح ميزان القوى فى صالحها فإن ذلك لن يغريها باستخدام تلك القوة ضد أعدائها ماداموا يمتنعون

عن العدوان ، أى أن الأمة الإسلامية لا تتعدى حدود الردع مادام يحقق الهدف منه وهو إخافة العدو ومنعه من استخدام القوة . ويرجع ذلك إلى ما يلى :

(ا) ليس العدوان غاية من غايات الحرب فى الإسلام ولم يشرع القتال إلا إعلاء لكلمة الله ودفاعاً عن الأمة الإسلامية ضد الاعتداء .

(ب) القصد من إعداد القوة فى الإسلام هو إرهاب العدو ليمتنع عن استخدام القوة ، وهذا ما يميز استراتيجية الردع الإسلامية فيما لو تملكت التفوق الساحق ، وها هو ذا الجنرال أندريه بوفر بعد أن قال إن استراتيجية الردع تستطيع توليد فن حقيقى للسلم يتساءل قائلا : «ولكن هل سنسير نحو السلم ؟ . . بالتأكيد كلا . . لأن تعشق الرجال للقوة مضافاً إليه القوى الغامضة التى تحكم التطور الاقتصادى والبيولوجى للإنسان ستفتش دوماً عن مساحة للتوسع والامتداد لتحويل القوة أو المنفعة التى تتطلبها تبدلات التوازن» .

وقد عرفنا أن التوازن الذرى يمنع قيام حرب ذرية بسبب خوف الخصمين من ارتكاب حماقة تؤدى فى الواقع إلى انتحار متبادل . ولكن فقدان التوازن الأكيد الشامل والحصول على قدرة ضاربة كافية مع قدرة أكيدة على صد الضربات المعادية سوف يؤدى حتماً إلى اندلاع حرب ذرية يشنها المتفوق لإبادة خصمه بضربة سريعة مفاجئة . . والكتلتان المتنافستان فى هذا العصر لم تحصلا فى أية مرحلة من مراحل سباق التسلح

على هذا التفوق الكامل الأكيد الذى لا تنتابه أية شبهة ولا تتخلله أبسط الشكوك وهذا ما دفعها دائماً إلى الامتناع عن استخدام السلاح الذرى برغم ارتفاع حرارة المجابهة بينهما أحياناً إلى الدرجة القصوى .

فاعتماد نظرية الردع المعاصرة على هذا التوازن الذرى لا يشيع الطمأنينة فى النفوس ، لأن اختلال هذا التوازن بحصول إحدى الكتلتين على تفوق ساحق وأكيد – وهو أمر وارد – سوف يؤدى إلى نشوب حرب نووية على الفور .

٣– تملك القدرة الهجومية :

برغم أن العسكرية الإسلامية ذات طبيعة سلمية دفاعية فإنها لا تقبل الاستسلام لأن اقتران استراتيجية الردع الإسلامية (ترهبون) بالقوة والمرابطة (من قوة ومن رباط الخيل) يفهم منه بكل وضوح أنه لابد أن تتوافر فى تلك القوة القدرة الهجومية التى تقنع العدو – حين يضع حساباته وتقديراته – بأنه سوف يكون هو الخاسر لو تحرك بعدوان . . وقد أبرز الاستراتيجيون هذا المبدأ فأكدوا : «أن العقيدة ذات الطابع الدفاعي البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة فى الردع إلا إذا توافرت لديها القوة الهجومية لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد» .

وهذا ما يستوحي أيضاً من لفظ «قوة» الذى ورد فى الآية مطلقاً غير

محدد ومن هنا فهو ينطوى على القوة الدفاعية والهجومية معاً .

وهو ما يستوحى كذلك من لفظ «الخيل» التى تنطوى على مفهوم الهجوم مع ما يدب عليه من المعانى الكثيرة .

٤ - تعتمد على عنصرى الحركة والمفاجأة :

تعتمد استراتيجية الردع الإسلامية بالإضافة إلى إظهار القوة على الاستغلال الأمثل لعنصرين من أهم عناصر الاستراتيجية العسكرية وهما «الحركة والمفاجأة» . وهذان العنصران يعبر عنهما (رباط الخيل) فى الآية الكريمة . فالرباط هو الحراسة والاستعداد للقتال الفورى عند الخطر ، والخيل تعبير يشير إلى السرعة وخفة الحركة والمباغتة ، وذلك ما يفهم أيضاً من قول الله تعالى :

(والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً) (العاديات ١ — ٥)

فى هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التى يسمع لأنفاسها صوت هو الضبح من شدة الجرى ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة والتى يكون من شدة جريها أن تثير غبار الطرق فى وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته وتنطوى الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد فيها

بهم من تحدثه نفسه بإضعافهم . وقد فهم بعض المفسرين المحدثين معنى أوسع من الخيل وهو كل ما يعدو ويغير ويثير الغبار ويرسل الشرر .

ويؤكد الاستراتيجيون أن غرض الاستراتيجية الحق ليس « التغلب » على المقاومة ولكن غرضها هو « التقليل من إمكان المقاومة » ، وأن الاستراتيجية تحاول إنجاز هذا الغرض باستغلال عناصر الحركة والمفاجأة .

(ا) فالحركة تقع في « المحيط الطبيعي » وتعتمد على ظروف الوقت وطبيعة الأرض (الطبوغرافية) وإمكانات النقل (والمقصود بإمكانات النقل كل الوسائل والإجراءات التي بواسطتها يمكن للقوة أن تتحرك وتحتفظ بكيانها) .

(ب) أما المفاجأة فتقع في « المحيط السيكولوجي » وهي تنطوي على عوامل أصعب بكثير من العوامل الطبيعية ومن المحتمل أن تؤثر على رغبة الخصم وإرادته في القتال وكلا العنصرين « الحركة والمفاجأة » يؤثر كل منهما على الآخر يمهد له طريق العمل ويدعمه وهنا تكمن العبقرية العسكرية في استغلال هذين العنصرين الاستراتيجيين :

١ - فالحركة تولد المفاجأة .

٢ - والمفاجأة بدورها تمنح قوة دفع للحركة وتمهد لها الطريق للتغلب على مقاومة العدو بسرعة وفاعلية .

٥ – تتيح الفرصة لحل المنازعات بالطرق السلمية :

وتهيئ استراتيجية الردع الإسلامية الفرصة الحقيقية بكل الحق والعدل لحل المنازعات والمشكلات بالوسائل السلمية دون اللجوء للحرب وهو ما لا تتسامى إليه كل اجتهادات القادة والزعماء والمنظمات الدولية قديماً وحديثاً .

فإن ما تتميز به الأمة الإسلامية من أن عقيدتها سلمية دفاعية وأن دينها يمنع العدوان وأنها تملك فى الوقت نفسه – وبأمر دينها أيضاً – القوة القادرة على رد العدوان وقهره ، يقنع الأمم الأخرى بالامتناع عن اللجوء إلى القوة لحل المشكلات ، وبأن طريق السعى لحل تلك المشكلات بالوسائل السلمية ليس مفتوحاً فحسب ، بل هو طريق مضمون النتائج لا تحيط به الشكوك ولا تنعدم به الثقة .

وليس فيه مخاطرة بالتنازل – تحت تهديد القوة – عن شىء من حق أو كرامة ، ولكن تحوطه كل معانى حب السلام والحق والعدل والتسامح وحسن النوايا وحب الخير للبشر أجمعين ، وتلك هى شرعة الإسلام التى نفت عن القوة كل معانى العدوان والغدر والظلم .

٦ – تحقيق الأمن والعزة للأمة الإسلامية :

وتحقق استراتيجية الردع للأمة الإسلامية الأمن والعزة ، فالإسلام

إذ يوجب عليها أن تعد ما تستطيع من قوة يستهدف أن تصبح الأمة الإسلامية شديدة الشوكة قوية البأس مرهوبة الجانب من قبل الأعداء ، قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية حدودها ومواجهة كل من يعتدى عليها أو يقف فى سبيل دعوتها لتكون أمة عزيزة لها كرامتها وسيادتها ولها وزنها وقيمتها فى هذه الحياة وليطمئن كل واحد فيها على نفسه ويأمن على ماله وعرضه .

٧- تردع القوى المضادة المستترة :

ومما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية أنها لا تهدف إلى ردع العدو الخارجى الظاهر فقط ، بل تهدف أيضاً إلى ردع أعداء الأمة من القوى المضادة التى تعمل ضدها فى الخفاء والتى قد يكون خطرها – إذا غفلت الأمة عنها أو لم تتصد لها – أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر . وهذا هو ما يفهم بوضوح من نص الآية الكريمة : (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) .

إن «عدوّ الله» واضح وهو كل خوان أثيم يعتدى على حرمات الله ويجاهر بمعصيته . و«عدوكم» واضح وهو عدو المسلمين وهو كل من يسىء إلى عقيدتهم أو إلى أوطانهم أو إلى حقوقهم المقدسة .

أما الفئة الثالثة وهى المعبر عنها بقوله جل شأنه (وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم)

فقد فسرها السابقون بالمنافقين الذين يلبسون ثوباً ظاهره الرحمة وباطنه العذاب إلا أنه ينطوى بلغة العصر على كل القوى المضادة التى تحقد على الأمة وتنفث سمومها فى الخفاء وتروج الإشاعات وتثير الفتنة وتغرى بالسلبية والفساد وتقتل الإرادة والإيجابية . .

ومن هذه الفئة من يكون داخل البلاد الإسلامية وبين صفوف أبنائها ، ومنهم من يكون خارجها يدبر ويخطط ويتحرك بكل الأساليب العلمية للحرب النفسية . .

من أجل ذلك فقد اشتملت استراتيجية الردع فى الإسلام على تلك الفئة من الأعداء الخفيين وأوجبت على الأمة الإسلامية إعداد كل وسائل القوة التى تردعها .

نظرية الاستعداد القتالى

فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم تقدماً مذهلاً ، أدى بدوره إلى تقدم عجيب فى فنون الحرب ، وأسلحتها وأساليبها ، أصبح مصير الأمم رهناً بدرجة استعدادها لرد العدوان عليها وردعه .

وأخطر ما تتعرض له الأمم فى هذا المجال هو المباغتة ، لذلك نراها تسعى بأقصى ما أوتيت من جهد ووسائل لكى تمنع العدو من مباغتتها ، ولذلك نراها تقيم استراتيجيتها العسكرية على استخدام وسائل الإنذار المبكر ، والاستطلاع الذى لا يتوقف ، وعلى الاحتفاظ بقدر معين من قواتها المسلحة على درجة عالية من الاستعداد للقتال الفورى ، وليس أدل على ذلك مما نسمع ونقرأ عنه من أقمار التجسس التى تدور بصفة مستمرة فى الفضاء حول الأرض لكى تنبئ أصحابها فوراً بما يتخذه أعداؤها من استعدادات حربية أو غيرها ، ومن أساطيل بحرية تجوب البحار والمحيطات ، وقواعد إطلاق الصواريخ عابرات القارات وطائرات الاستطلاع الإلكترونى وقواعد جوية تقبع فيها القوات المستعدة للانطلاق فوراً إلى حيث يراد توجيهها إلى غير ذلك من وسائل الاستعداد القتالى .

ولقد عنى الإسلام أشعد العناية باتخاذ الحيطة والحذر، لوقاية المسلمين من أخطار المباغتة المدمرة. يقول الله تعالى: (يأيها الذين أمنوا خذوا حذركم) [النساء ٧١] ويقول أيضاً: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) [المائدة ٩٢] ويقول جل شأنه: (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [التوبة ١٢٢].

ولعل أبلغ ما يؤكد عناية الإسلام بالحذر ما ورد فى القرآن الكريم بشأن الصلاة فى الحرب، فقد أمر الله تعالى بأدائها فى وقتها ولكنها تكون ركعتين بدلاً من أربع، وأمر بأن تصلى طائفة مع الرسول فى حين أن الطائفة الأخرى فى موقف الحراسة، حتى إذا فرغت الطائفة الأولى اتخذ كل من الفريقين حالة الآخر، قال تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة، فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) [النساء ١٠٢].

توجيهات للمقاتلين:

وهكذا أوجب الإسلام على المصلين أن تكون معهم أسلحتهم وجعل الطائفة الثانية للحراسة حتى لا يفاجئهم العدو. ويستخلص من هذا التوجيه القرآنى ما يلى:

١ - أن الإسلام يعد الحذر والحيطة أمراً بالغ الحيوية لمصلحة الإسلام والمسلمين .

٢ - أن الإسلام لا يرضى بالتواكل أبداً وهل هناك أدل على ذلك من أنه يأمر المسلمين باتخاذ الحيطة والحذر والاستعداد حتى فى الصلاة التى يؤدونها لله ، ويكونون فيها بين يديه ؟ .

٣ - أن الإسلام « يفتح عيون المسلمين » على الخطر المحدق بهم من أعدائهم المتربصين بهم ، الذين ينتظرون لحظة الغفلة منهم (ودَّ الذين كفروا) ، كما يجسد عواقب تلك الغفلة ، والأضرار البالغة التى يتعرض لها المسلمون من جرائها (فيميلون عليكم ميلة واحدة) . أى فيحملون عليكم حملة واحدة فينقضون عليكم وأنتم على غير استعداد .

٤ - أن الإسلام يحذر من الاستهانة بالعدو ، فهى تؤدى إلى إهمال اتخاذ الحيطة والحذر ، فتتعرض الأمة للاندحار ، وما أصدق المثل العربى القائل : إن كان عدوك نملة ، فلا تنم له ، وما أصدق قول الشاعر :

لا تحقرن صغيراً فى مخاصمة ... إن الذبابة أدمت مقلة الأسد

٥ - أن الإسلام يحذر من الاغترار بالقوة فهى مثل الاستهانة بالعدو تؤدى إلى إهمال الحذر .

وما حدث للمسلمين يوم حنين حين أعجبتهم كثرتهم ، وقال قائلهم : «لن نغلب اليوم من قلة» أبلغ درس فى هذا المجال .

فبهذه المبادئ يجعل الإسلام من اليقظة والحذر والاستعداد القتالى قضية حياة أو موت بالنسبة للأمة الإسلامية .

الاستعداد . . واليقظة وارتباطها بالقوة :

من أجل ذلك يربط الإسلام بين إعداد القوة وبين درجة الاستعداد واليقظة كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [الأنفال ٦٠] ، ويقول جل شأنه : (يأيها الذين آمنوا اصْبِروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلكم تفلحون) [آل عمران ٢٠٠] .

ونلاحظ فى الآية الأولى أن الله تعالى خص (رباط الخيل) بالذكر مع أنها داخلة فيما قبلها (من قوة) ، وهذا دليل على أهمية المرابطة وتأكيد لما بينها وبين القوة من ارتباط وتكامل :

فالقوة : تحميها المرابطة بالحراسة واليقظة والحذر . لأنها بدونها تفقد قيمتها وفاعليتها .

والمرابطة : تحتاج إلى القوة تسندها وتدعمها .

والرباط نوع من الجهاد له فى تقدير الإسلام وزن كبير وشأن خطير كما يظهر من قول النبى ﷺ :

- «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» .
- «عينان لاتمسها النار عين بكت من خشية الله ، وعين باتت

تحرس فى سبيل الله» .

● «من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى»

ثم إن الرباط – فضلاً عن أنه وقاية للمسلمين من المباغتة – ركن أساسي فى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية ، لأن المراد منه إرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين وتخويفهم من عاقبة عدوانهم وذلك من خلال الاستعداد القتالى ، والمرابطة اليقظة القوية ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : (ترهبون به عدو الله وعدوّكم) .

درجة الاستعداد القصوى :

وإذا كان العلم العسكرى الحديث يقرر أن من مقومات الاستعداد القتالى أن تكون هناك قوات على درجة عالية من الاستعداد للعمل الفورى تسمى بدرجة الاستعداد القصوى ، فإن الرسول القائد عليه الصلاة والسلام قد وضع المعيار الصحيح لدرجة الاستعداد القصوى على أحدث ما فى العلم العسكرى من معايير.

يقول عليه الصلاة والسلام : «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما سمع هيعة (أى صيحة خطر) طار إليها» .

وفى رواية أخرى : «من خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه (أى ظهره) كلما سمع هيعة أو فزعة

طار عليه يبتغى القتل أو الموت » .

وبتحليل الحديث الشريف نستخلص المعانى والمبادئ الآتية :

١ – الاستعداد المستمر :

فكلمة « ممسك » تعنى لغويًّا درجة من الاستعداد أعلى من مجرد ركوب الفرس : فهى تفيد « استمرار » حالة الإمساك بعنان الفرس ، وهى تدل بذلك على معنى الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الإشارة . فالفارس والحالة هذه إذا جاءه الإنذار أو رأى خطراً لن يكون بحاجة إلى الإتيان بأى تصرف ، ولا حتى مدّ يديه ليمسك بعنان فرسه ، لأنه ممسك بها فعلا ، أى أن كل ما سوف يفعله هو الانطلاق ، وتلك درجة من الاستعداد ليس هناك ما هو أعلى منها ، ويتضح مبدأ الاستعداد المستمر أيضاً من مفهوم كلمة « كلما » سمع هيعة ، فالفارس مستعد للانطلاق فى « كل مرة » يكون فيها خطر .

٢ – السرعة الفائقة فى الانطلاق :

فكلمة « طار » فى عبارة « كلما سمع هيعة طار إليها » ذات مدلول فى سرعة الحركة أكثر من كلمة تقدم أو اندفع أو أسرع أو انطلق ، فهى كلمة تعبر عن أسرع أشكال الحركة على الإطلاق ، وتلك درجة من الاستعداد ليس هناك ما هو أعلى منها .

٣ - أن تكون القوة خفيفة الحركة :

فذكر «الخيل» فى مجال المرابطة والاستعداد كما ورد فى الآية الكريمة (من قوة ومن رباط الخيل) وفى الحديث الشريف «بعنان فرسه» يرمز إلى مبدأ هام يقرره الرسول القائد وهو يضع معايير الاستعداد القتالى لجيش المسلمين وهو مبدأ «خفة الحركة».

فلابد أن يراعى فى تركيب القوة التى توضع فى درجة الاستعداد القصوى أن تكون سريعة الحركة ، وإذا كانت الخيل فى ذلك الوقت هى وسيلة خفة الحركة ، فالسيارة والدبابة والطائرة هى وسائل خفة الحركة فى عصرنا .

٤ - تكريم المجاهد المتأهب :

فكلمة «خير الناس» فى بداية الحديث تنطوى على تكريم المجاهد الذى يقف فى أعلى درجات اليقظة ، وهو تكريم يستحقه لقاء العناء والجهد البدنى والعصبى الذى يبذله ، لكى يظل على تلك الدرجة العالية من الاستعداد . هذا بالإضافة إلى الفضل الذى يعود إليه لإنذاره أمته ، وتنبيهها إلى الخطر حتى لا تؤخذ على غرة .

كما تنطوى تلك الكلمة أيضاً على تحريض المجاهدين جميعاً لأن يكونوا فى أعلى درجات الاستعداد للقتال الفورى للدفاع عن أمتهم حتى

يحظوا بوصف «خير الناس» .

والجدير بالذكر ، أن هذا الوضع من الاستعداد بالمقاييس التى قررها الرسول القائد منذ أربعة عشر قرناً (الرجل الممسك بعنان فرسه) هو حقيقة الوضع الذى يتخذه اليوم طيارو المقاتلات الاعتراضية وهم فى درجة الاستعداد القصوى للتصدى لطائرات العدو المغيرة .

وعلى نفس النمط من الإستعداد تكون القوات العسكرية التى تخصصها الجيوش لتكون فى درجة الاستعداد القصوى لكى تنطلق فوراً للقتال فى المكان المطلوب ، وعادة ما تشكل هذه القوات من جنود المظلات أو جنود الجو أو جنود الإبرار البحرى (الذين ينزلون على الشواطئ) ، وهم يتمركزون عادة بالقرب من القواعد التى سوف ينطلقون منها كالمطارات أو القواعد البحرية أو حاملات الطائرات فى البحار . . ويلاحظ أن تلك العناصر من القوات تتصف «بخفة الحركة» التى هى مطلب أساسى – كما قدمنا – فى مجال الاستعداد القتالى

ولقد قدم الرسول القائد ﷺ بنفسه مثلا على درجة الاستعداد العالية حينما سبق أهل المدينة جميعاً ذات ليلة إلى مصدر صوت قوى غير عادى أفزعهم فانطلق معهم نحو الصوت فإذا هم برسول الله ﷺ عائد من هناك راكباً فرساً عارياً والسيف فى عنقه وهو يقول «لن تراعوا» وهكذا كان الرسول القائد ﷺ أولهم استعداداً وأسرعهم إلى النجدة .

النظرية الإسلامية فى عقيدة القتال

لم تدرك الجيوش الضرورة الحيوية لعقيدة القتال إلا حديثاً .

وتعرف عقيدة القتال : بأنها مجموعة المبادئ والأفكار والاتجاهات ، التي يعتنقها أفراد الجيش فيما يتعلق بالقضية التي يحاربون من أجلها ، أى أن عقيدة القتال تتعلق بالجانب المذهبي أو المعنوى من القتال ، ولذلك تسمى أحياناً بالعقيدة المعنوية أو الروحية . . وتقدم عقيدة القتال للمقاتل الإجابة عن السؤال : «لماذا أقاتل» ؟

ويقول المشير مونتجمرى : «إن التعب والرعب والحرمان وتحمل الموت سوف يواجهها الجندى المقاتل بقلب جسور إذا كان على علم وإيمان بالغرض الذى يقاتل من أجله» .

وقد أصبح من حقائق الحرب الحديثة أنه كلما أدرك الجندى أن الحرب التى يخوضها حرب عادلة وأن الهدف الذى يقاتل من أجله يستحق التضحية بحياته ، كان صادق العزم فى القتال قادراً على مواجهة أقسى تحدياته .

وقد أثبتت الدراسات التى أجريت عقب الحرب العالمية الثانية أن أغلب الجنود الذين يتمتعون بروح معنوية عالية هم الذين كانوا يؤمنون بالغرض من الحرب .

ولقد قال الجنرال مارشال عن ملاحظة عينية أن ٢٥ ٪ فقط من الجنود فى القوات المقاتلة هم الذين يضطلعون فعلاً بعبء القتال ، أما الباقون فهم لا يكلفون خاطرهم عادة بتوجيه نيرانهم نحو العدو . ويفسر ذلك بقوله : «إن الحرب الحديثة أصبحت فى حاجة إلى المزيد من المطالب المعنوية كحاجتها إلى المطالب المادية» .

العقيدة والحروب القديمة :

ولم يكن الأمر كذلك فى الحروب القديمة ، فقد كانت الجيوش تحارب فى صفوف وجماعات متراصة ، فكانت شخصية المقاتل تذوب فى الجماعة التى تجرفه فى تيارها وتسنده وتحجب نقط الضعف التى فيه ، تحت تأثير أن الجماعة تنظر إليه وترقبه ، وإحساسه المعنوى بالطمأنينة لوجود رفاقه على جنبيه . . ثم إن الضباط والقادة كانوا يتقدمون خلف فصائلهم مباشرة وكانوا يسيطرون على رجالهم بالعين والصوت لكونهم متجمعين ، أى أن سلوك الجنود فى المعركة كان يقع تحت سمع قادتهم وبصرهم بصورة محكمة ، لا يستطيعون منها فكاكاً .

وهكذا لم يكن هناك تقدير أو اعتراف بفردية المقاتل وظهرت فى ذلك الوقت ما يطلق عليه «المدرسة الجبرية» التى تقول بأن وظيفة الجندى هى الطاعة العمياء للأوامر والقتال دون أدنى تفكير أو مناقشة ، ولا تؤمن بضرورة إعداد الجندى معنويا من خلال عقيدة قتال معينة ،

ولا بضرورة تفهمه للهدف الذى يحارب من أجله ، وكان فريدريك الأكبر يعتنق هذه النظرية ، ويقول عن رجاله إنهم «متى اجتمعوا فى صفوفهم وعلموا أن الضابط وراءهم بالسوط فإنهم يضطربون خوفاً ، ولا يترددون فى التخلص من كل اعتداء أو خطر ويكفى أن آمرهم حتى يلقوا بأنفسهم فى النار ويضحوا بحياتهم فى سبيلى دون تفكير لأنهم يجهلون كل شىء حتى الغرض الذى يقاتلون من أجله» .

تطور شكل الحرب :

ثم أدى تطور شكل الحرب إلى أن أصبحت «النظرية الجبرية» غير ذات موضوع وظهرت الحاجة الملحة إلى تنمية «الدوافع الذاتية» لدى المقاتل .

والسبب فى ذلك ظهور أسلحة القتال ذات قوة النيران الهائلة وأسلحة التدمير الشامل (مثل القنابل الذرية) فقد اضطرت الجيوش إلى الانتشار ، فأصبحت هناك مسافات بين الجندى وزميله ، بل إن الجندى قد يواجه وحده موقفاً لا يخلصه منه إلا تفكيره وتصرفه وحدهما ، كذلك أصبحت سيطرة القائد على جنوده أكثر صعوبة وتعقيداً عن ذى قبل مما يمكن معه القول إن عنصر الرقابة المباشرة على الجندى فى الميدان لم يعد متوافراً .

فأهم ما يستخلص من تلك المقارنة بين الحرب القديمة والحرب

الحديثة من حيث طبيعة كل منهما وموقف المقاتل الفرد فيهما ، أنه لا قيمة للفرد الذى تعود ألا يؤدى واجبه إلا عند وجود رقيب عليه ، بل إن مثل هذا الفرد يكون وبالا على الجماعة إذ قد يؤدى إهماله أو تقاعسه (وهو فرد واحد) إلى هزيمة القوة أو هلاكها . . أى أن الانضباط العسكرى – بالتعبير العلمى – لم يعد فى «صلب الجماعة» كما كان بالأمس ، بل أصبح فى «صلب كل فرد» .

وكذلك أصبح من المستحيل «إجبار» المقاتل فى الحرب الحديثة على القتال بدوافع خارجية كالسوط أو التهديد بإطلاق النار ، وإلا كان على الجيوش أن تأتى بمثل حجمها من المراقبين وحاملى أدوات التهديد والدفع بالقوة .

نظرية العقيدة المحددة :

وهكذا ظهرت فى العصر الحديث عدة مدارس ونظريات فى مجال الدوافع وعقيدة القتال ، ومنها مثلاً نظرية العقيدة المحددة وهى تنادى بضرورة اعتناق الجنود لعقيدة محددة (دينية أو سياسية أو مذهبية . . إلخ) تتركز حولها جميع اتجاهاتهم الفكرية وتوحد جهودهم للدفاع عنها ، وبذلك يصبح انتصار هذه العقيدة هو هدف القتال . وتؤمن هذه المدرسة بأن العقيدة القتالية هى التى تحرك الجندى – بدافع ذاتى – إلى الاستبسال فى القتال والتصميم على تحقيق الهدف مهما تكن

التضحيات ، وواضح أن هذه النظرية تؤمن «بفردية» المقاتل وتحترم شخصيته ، وتدرك حقيقة أن المقاتل المنتصر هو الذى يدخل المعركة مشبعاً بعقيدة معينة ومقتنعاً بالهدف الذى يقاتل من أجله .

وتأخذ بهذه النظرية الدول التى لا تفصل عقيدتها العسكرية عن عقيدتها السياسية .

نظرية تنمية الاتجاهات :

أما مدرسة الاتجاهات فهى تتفق مع مدرسة العقيدة المحددة فى انقضاء عهد الجندى الذى يعمل بغير دافع أو هدف ، إلا أنها لا تتقيد بعقيدة محددة ثابتة ، بل تنادى بفكرة تنمية الاتجاهات الصحية وتوضيح المبادئ العامة وقضايا الوطن والخطر المحدق به فى المواقف المختلفة . ووجهة نظر هذه المدرسة تقوم على ما يلى :

١ - أن العقيدة القتالية ليست هى الدافع الوحيد للقتال ، بل هناك دوافع أخرى ذاتية واجتماعية مثل حب الظهور بمظهر الشجاعة والبطولة ، أو حب السيطرة والقيادة أو الرغبة فى الحصول على الثناء أو المكافأة إلى غير ذلك من الدوافع .

٢ - أن الحرب ليست قتالاً بين العقائد أو المذاهب بقدر ما هى قتال من أجل أهداف تخضع لظروف واتجاهات متغيرة ، فالشيوعية والرأسمالية - مثلاً - اللتان حاربتا جنباً إلى جنب ضد النازية فى الحرب

العالمية الثانية أصبحتا اليوم خصمين .

وواضح أن معتنق هذه النظرية يريدون أن يختاروا لأنفسهم الأهداف التى يقاتلون من أجلها بحسب الأحوال والظروف المتغيرة ، ولذلك يمكن أن يقال إنهم يضعون المصالح فوق المبادئ .

النظرية الإسلامية :

وإذا كانت «النظرية الجبرية» فى دفع المحاربين إلى القتال هى النظرية التى سادت فى الحروب قديماً وظلت سائدة إلى عهد قريب حتى ظهرت الأسلحة الحديثة ، فتحولت الأمم عنها إلى النظريات التى تعتمد على تنمية الدوافع الذاتية فى نفوس المحاربين ، فإن الإسلام قد سبق – منذ أربعة عشر قرناً – بتقرير نظرية الدوافع التى تحرك الإنسان عن إيمان واقتناع وليس عن جبر أو قسر ، ذلك لأن الحرية والاختيار والإقناع من أصول الدعوة الإسلامية .

وتقوم النظرية الإسلامية فى عقيدة القتال على الأسس الآتية :

أولاً – كرامة الإنسان :

لقد قرر الإسلام مبدأ الحرية والكرامة الإنسانية ، وحرر شخصية المسلم من العبودية لغير الله تعالى فى كل ميدان من الميادين .

وإذا كان الإسلام ثورة اجتماعية غيرت مجرى التاريخ البشرى ، فإن فلسفة التغيير هذه لم يقمها الرسول محمد ﷺ أو أحد الخلفاء الراشدين من بعده على أنقاض الحرية الفردية ، أو التضحية بها فى أى صورة من صورها . ولذا نراه – مع حرصه الشديد على أن يدخل الناس فى الدين أفواجاً – لا يضرب على أيديهم ، ولا يسوقهم نحو الإيمان سوقاً ، لأن الإسلام يريد بالتغيير الذى نادى به وعمل على تحقيقه أن يصنع رجالا أبطالا ، ونماذج تستطيع أن تحمل مشاعل الفكر ، وتنير طريق الحرية .

ثانياً – تنمية الضمير الدينى :

عنى الإسلام بتكوين الضمير الدينى للمسلم بحيث يندفع إلى أداء واجبه على أكمل وجه معتمداً على قوة ذاتية داخل نفسه ، لا على قوة أو سلطة خارجية وهذا هو أرقى مراتب الانضباط العسكرى وهو الانضباط الذاتى . وفى هذا يقول نابليون بونابرت : «إن المجتمع الذى لا يعتمد على قوة ذاتية ويتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة وعلى دقة المراقبة لاشك أنه يعتبر عبئاً على المجتمع ومضيعة لقواه» .

لذلك فالضمير الدينى للمسلم ، هو الذى يمنحه القدرة على حسن السلوك والجدية فى التفكير والعمل الفعال على الابتكار والتطرف فى مواجهة المواقف .

والضمير الدينى هو الذي يدفع المسلم إلى أن يرعى الله فى عمله لأنه

هو الرقيب المطلع ، ويصوره لنا الرسول الكريم فى العبارة بقوله : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . ومن عجيب صيغ القرآن الكريم فى تربية الوازع الدينى الخلقى أنه لم يجعل نتيجة الخوف أمراً سلبيا ، وهو النجاة من العقوبة وعدم التعرض للعذاب ، بل جعل للخوف فوق النجاة والسلامة جزاء إيجابياً وثمرة أخرى فوق الخلاص من العقاب ، وهى الثواب الجزيل والأجر العظيم وذلك ما يفهم من قول الله تعالى :

– (وأما من خاف مقام ربه ونهى النّفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى)

– (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

– (لنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد)

ومثل هذا قد نراه فى القرآن الكريم عن الخشية ، كقوله تعالى :

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير)

فجمع لهم بين المغفرة والأجر العظيم .

ثالثاً – تنمية الاتجاهات النفسية الصحيحة :

يُعرف الاتجاه النفسى بأنه ميل عام مكتسب ، ثابت نسبيا ، يؤثر فى دوافع الفرد ويوجه سلوكه كالميل إلى أشياء أو موضوعات معينة تجعل

الفرد يقبل عليها يحلّها أو يرحب بها أو يعرض عنها أو يرفضها ، ويتضمن الاتجاه النفسي نوعاً من الحكم وإبداء الرأى بالقبول أو الرفض أو بالموافقة أو بالمعارضة .

وينمى الإسلام فى المسلم الاتجاهات النفسية الإيجابية الصحيحة نحو فكرة إعداد القوة والقتال لإعلاء كلمة الله على ما يلى :

(ا) بناء الشخصية الإسلامية على الإيمان والتوحيد فى العقيدة والأخلاق والعمل ، وتبدأ عملية البناء منذ الطفولة وتتغلغل فى جميع مراحل التربية والتنشئة الاجتماعية ، ومن خلال ذلك يكتسب الفرد الاتجاهات النفسية الصحيحة منذ نشأته[1] .

(ب) تحرير الشخصية الإسلامية من خوف الموت وحب الدنيا .

(جـ) توفير الصحة النفسية للمسلم ليكون ذا شخصية سوية ، وقادراً على التوافق مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه .

وعلى ذلك يصبح إقبال المسلم على الوفاء بتكاليف الإسلام والجهاد فى سبيل الله عن إيمان واقتناع وفى شجاعة واستبسال ، تعبيراً عملياً عن تلك الاتجاهات النفسية وعن إيجابيتها وقوتها .

---

(١) يقول الجنرال مارشال فى كتابه (الجنون فى مواجهة النيران) : «إذا رغبنا فى الحصول على الجندى الصالح فيجب أن تتجه أنظارنا إلى مهد الطفل عندما تنشئه أمه ليكون رجلاً ، وإلى المدرسة حيث يتعلم كيف يضحى بمصالحه الشخصية من أجل الوطن . وفى أروقة الحكومة حيث ينبثق فى قلوب الشعب وعى صادق عن الواجب»

رابعاً - عقيدة الجهاد فى سبيل الله :

وجوهر عقيدة القتال فى الإسلام هو «الجهاد فى سبيل الله» وهو فلسفة متكاملة تتناول شخصية المقاتل المجاهد وتكوينه النفسى والوجدانى وسلوكه الاجتماعى ، وتنمى لديه الاتجاهات النفسية الإيجابية التى تحركه - ذاتيًّا - نحو الاستبسال فى القتال فى سبيل الحق وإعلاء لكلمة الله .

يقول الله تعالى : (وجاهدوا فى الله حقّ جهاده هو اجتباكم) (الحج ٧٨)

ويقول سبحانه وتعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) (التوبة ١١١)

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : «الإيمان بالله والجهاد فى سبيله»

وقال عليه الصلاة والسلام «من اغبرت قدماه للجهاد فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار» فالجهاد بوجه عام يعتبر مبدأ من مبادئ الإسلام التى أخذت مكانتها بين عقائده وفروعه، وقد قرنه الله بالإيمان وجعله دليلاً عليه أو ثمرة طبيعية له ، كما يفهم من قوله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) (الحجرات ١٥)

مزايا عقيدة الجهاد :

وتتميز عقيدة الجهاد بوضوح الهدف فإن الغرض من الجهاد ليس غرضاً ماديًّا أو حظًّا دنيويًّا وليس اغتصاباً للحق أو عدواناً على أحد ، وإنما هو إعلاء لكلمة الله وردع للعدوان .

ويدرك المجاهد – وهو يقاتل فى سبيل الله – أنه يخوض حرباً عادلة شريفة المقاصد والوسائل . وهكذا تتميز النظرية الإسلامية فى غرس العقيدة القتالية بالخصائص التالية :

أولاً – السبق بتقرير نظرية الدوافع التى تحرك الإنسان عن إيمان واقتناع :

وليس عن جبر أو قسر ذلك لأن الحرية والاختيار والاقتناع من أصول الدعوة الإسلامية ، وإذا كان العالم قد عرف نظرية العقيدة والدوافع ، وتخلى عن النظرية الجبرية التى سادت إلى عهد قريب ، فإن نظرية العقيدة عند الإسلام «موقف مبدئى» منذ أربعة عشر قرناً كما بينا .

ثانياً – تربط النظرية الإسلامية العقيدة العسكرية بالعقيدة الدينية :

وإذا كانت الدول التى تأخذ بنظرية العقيدة المحددة تربط عقيدتها

العسكرية بعقيدتها السياسية فإن مزايا النظرية الإسلامية تبرز واضحة كما يلى :

١ – ثبات العقيدة واستقرارها لأن (الدين) أثبت وأكثر دواما من السياسة .

٢ – النبل والشرف والعدل فى الغاية والوسيلة ، لأن السياسة غالباً ما تخضع للأهواء والأطماع والمصالح .

٣ – توليد أقوى الدوافع على الإطلاق ، لأن أية عقيدة سياسية مهما عظمت ، لا ترقى إلى مستوى عقيدة الجهاد التى يجد فيها المجاهد الوسيلة إلى الظفر بمرضاة الله ، وإلى دخول جنة عرضها السموات والأرض .

٤ – تنزيه المقاتل عن دوافع المفاخرة أو حب الظهور أو الرغبة فى الثناء ، فهو لا يستحق الجنة : ولا يجد ريحها إلا إذا كان جهاده خالصاً من أجل إعلاء كلمة الله ، فقد سئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل للشجاعة ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

ثالثاً – توفر النظرية الإسلامية للمجاهد رصيداً هائلاً لا ينفد من الدوافع النفسية والمعنوية :

فكل الدول تعمل على تنمية « دافع الوطنية » فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم لكى يقف الجندى مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر ممتلئ

النفس بالعاطفة الوطنية ، ومستعدًّا للتضحية بالروح فى سبيله . . لكن ما « الوطنية » إلى جانب « إعلاء كلمة الله » ؟ . . إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله من قوة ؟ !

رابعاً – تملأ النظرية الإسلامية المجاهد المقاتل ثقة فى نصر الله :

١ – فالمجاهد يدرك بفطرته السليمة تكريم المولى سبحانه وتعالى له « باختياره » لأشرف مهمة وهى الجهاد فى سبيل الله (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم) ، وهو يدرك كذلك مغزى هذا الاختيار وما ينطوى عليه من التزام ، ففرق كبير بين أن تقول لشخص ما « مهمتك هى كذا » وبين أن تقول « مهمتك كذا وأنا اخترتك لأدائها » فالصيغة الثانية تنطوى على معانى الثقة والأمل والتكريم وكلها من أهم وأعظم الحوافز المعنوية ، كما يترتب على الاختيار التزام المكلف بأن يكون عند حسن الظن به ، وأن يثبت عمليًّا أنه جدير بالثقة التى وضعت فيه ، وأهل للتكريم الذى ناله ، وقادر على تحقيق الأمل المعقود عليه .

٢ – والمجاهد فى سبيل الله يحس بأنه جندى من جنود الله ، يحارب أعداء الله ، وليس هناك ما يملأ القلب ثقة أعظم من هذا الإحساس ، ثم إن هذا الإحساس لا يقتصر أثره على المقاتل وحده ، بل هو يجعل روح المقاتل ونفسه وقلبه مصادر إشعاع لكل عمل بطولى ، وجهال

نفسى ، وجلال خلق .

٣ – وتكتمل عناصر الثقة فى النصر بشعور المجاهد وثقته فى معيّة الله لجنده الذين يقاتلون فى سبيله ويقومون على مبادئه ، واطمئنانه إلى وعده جل وعلا لهم بالنصر.

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) (الحج ٤٠)

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (محمد ٧)

(وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) (الروم ٤٧)

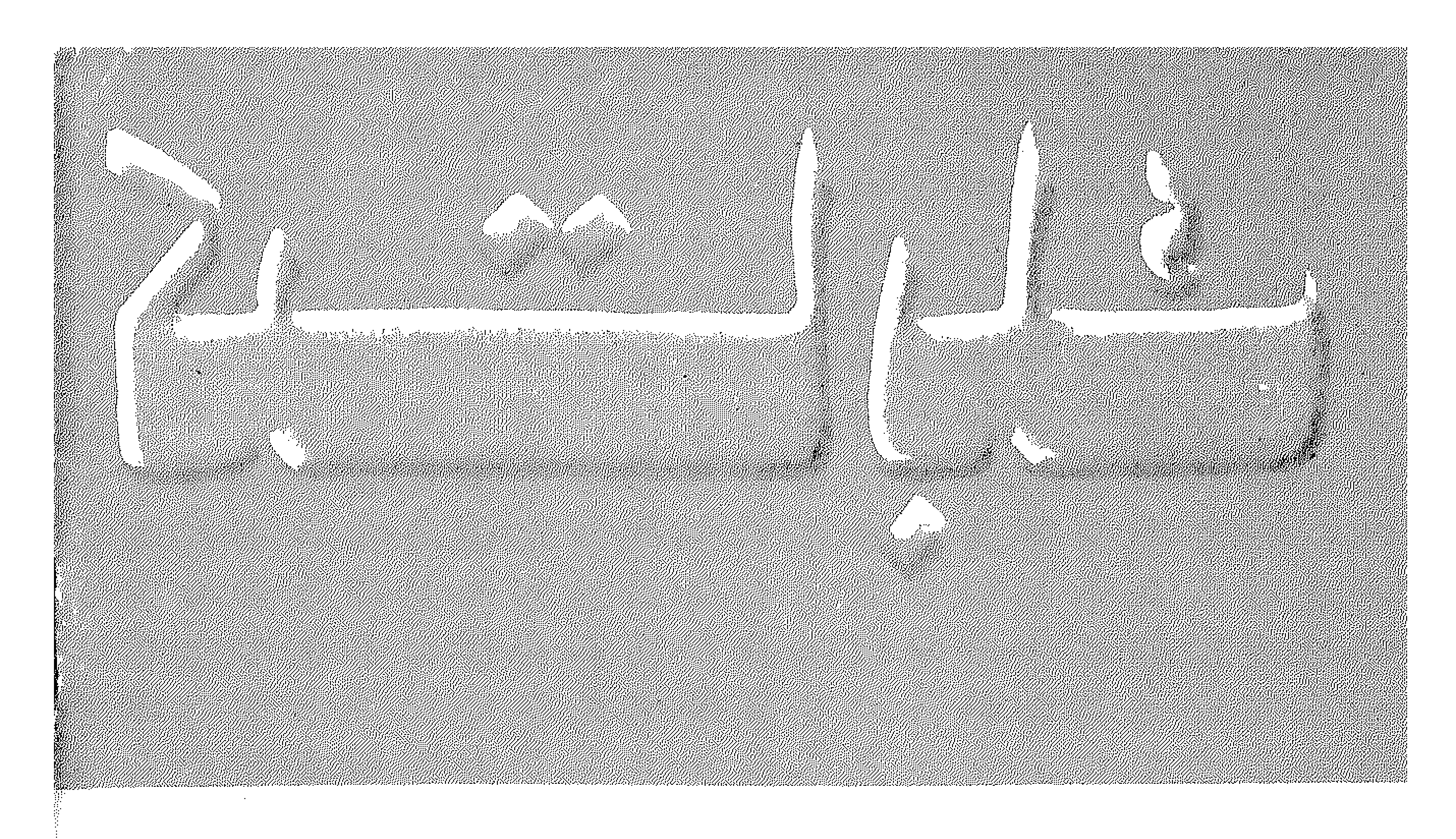
(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) (الصافات ١٧١ – ١٧٣)

الكتاب القادم

النفايات الذرية

د . محمد عبد الله بيومى

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)



هـذا الكتاب

يقدم نظرية الإسلام العسكرية كما رسمها وأرادها محمد ﷺ . وانعكست على كثير من الانتصارات والفتوح الاسلامية فيما بعد وحتى عصرنا الحديث .

كما يصحح هذا الكتاب المفهوم السائد لدى كثير من المستشرقين والذى يجرد المسلمين من الفن العسكرى الدقيق . ويرجع انتصاراتهم إلى مجرد الايمان بالله فحسب .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٠٨٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٦٤٥ - ٢

١/٧٨/٤٨٠

١٠ جـ